

## المستعمر والمستعمَر، من الجدلية إلى المناجاة.. في مقاربة "محمد أركون" - الإجراءات المنهجية والتحويلات القيمية -

الملخص:

هذا المقال يحاول أن يُعرّف بطرح جديد حول موضوع قسّم هو علاقة كلّ من المستعمر والمستعمَر، وفق مقترح يتقدم به مفكر حديث هو "محمد أركون"، يعرض في طرحه هذا رؤيته وصياغته لنمط جديد من العلاقة تنتقل من الصراع أو التدافع إلى المناجاة والتعاون للحد الذي سيعيدان فيه سويًا كتابة تاريخهما! ولا يُعنى المقال بالحكم عليها ولا على إمكانها بقدر ما يريد الإضاءة على كونها محاولة فكرية تقويضية للمتعارف عليه البشري الفطري في الرؤية والحكم.

وفي المقال قراءة لصياغته وصلها بخلفياتها وتتناولها وسط ظروف إنشائها وفي معية الجهود الفكرية الأكاديمية المؤيدة والموازية وذات المطالب المطابقة لها، والقصد إعادة النظر أو تحقيقه في مسألة اعتبار عينة من الشروط في العمل الفكري والتاريخي، أو في مسألة تحلل الفكر من الشروط، حتى الفطرية منها، أو ربما كان الأمر يتعلق بإعادة الاصطلاح والتعارف على شروط جديدة غير مألوفة يكون المفكر "أركون" بصددها. كما يتضمن المقال محاولة جزئية أخرى للاقتراب من المستوى بنية القيمة أو الفكرة الذي يجري فيه التغيير والتبديل ومن كلفيته. فلعل ذلك أن يكون إسهامًا في مناقشة طفرات المناهج وحديث المقترحات الفكرية الخاصة من أجل الإبقاء على قدر من التواصل البشري والقيمي، ولو من خلال النقد، لتقريب طرفي الهوة، ومحاولة بعث ولو للمشارك الفطري الإنساني في التعريف والحكم...

The summary:

### **The colonized and the colonizer in the approach of Mohammed Arkoun: From the dispute to the confidence**

This article attempts to make known a new presentation of an old theme of the relation colonized/colonizer according to a proposal of a modern thinker Mohammed Arkoun. The latter exposes in his presentation his vision and his formulation of a new kind of relation that goes from the antagonism and struggle to the confidence and cooperation in the point to rewrite their history together! This article is not interested to judge this relation or to consider its possibility as it tries to enlighten as an attempt to annihilating human thought instinctive collective values of the perception and the judgment.

We find in this article also a reading formulation of Arkoun that connects it to its origins and treats it in its generating circumstances with efforts to encouraging academic thinking, parallel and identical claims. The purpose

of this article is to review and study the problem of considering a sample of working conditions in the historical thought, or perhaps it is to establish new values out of the ordinary that Arkoun is underway to define and decide.

This article attempts partially to approach the level of the structure of the value and the idea in which comes true the transformation and its way. This could be a contribution to the discussion of perverse methods and proposed new visions to preserve a semblance of relations and human values, even by critics, to bring the edges of the abyss and try to revive a minimum mutual human instinct in the definition and judgment...

تتناول هذه الدراسة قراءة في إحدى مقاربات "محمد أركون" تتعلق بمقترح فكري يصوغ فيه العلاقة بين المستعمر والمستعمَر في مرحلة ما بعد الاستعمار، وفق ما ينبغي أن تكون عليه، في محاولة منه لفتح أفق جديد بين خصمين تاريخيين. غير أن مقاربتة هذه لم تكن معزولة عن إشكاليات كثيرة تاريخية وقيمية وعلمية يطرحها ويقدم حولها مقالات لم تكن مألوفة، على الأقل لدى العرب والمسلمين، وهو يقيمها على قاعدة نقدية لجملة من الموضوعات والمحاور تعد ثوابت وقيما ومعتقدات .

تشتبك مقارنة العلاقة بين المستعمر والمستعمَر\_والتي يريد نقلها من الصراع إلى التصالح والتضامن، بل وإلى ما أسماه بالمناجاة الذاتية بينهما ! \_ مع موضوعات أخرى كانت محل نقد شديد لديه؛ تعد خلفيات له ومنطلقات منهجية، وهي أيضا أجزاء مشكلة للموضوع. وقبل عرضها تجدر الإشارة إلى أن هذا البحث يأتي محاولة لتحليل ونقد مقولات "أركون" في هذا الشأن، ومقارنتها مع المعارف عليه القيمي البشري والفكري والسني، وحتى مع أنظمة القوى وتنازع الإرادات وتعارضها.

ذلك أن مقاربتة ذات متعلقات كثيرة، وموضوعها يقع ضمن شبكة من المقاربات وهو مركزي فيها وإن بدا فرعيا، وله أهمية وفاعلية بالغتين؛ سواء على مستوى المفهوم والجذر القيمي، أو في بعده السياسي والنفعي والحضاري، فضلا عن الفعل التاريخي المحوري "الكتابة المشتركة والمتضامنة للتاريخ بين خصمين"، ليشكل ذاكرة أخرى وتاريخا بديلا الأول، ثم يعمم عبر جميع قنوات التعليم والتلقي.. مرفقا بالقاعدة المنهجية لهذا التاريخ الجديد وما يتسق معه من قيم ومعرفة جديدين، وطبعا مع ما يستند عليه من خلفية معلومة وأخرى مجهولة لا يفصح عنها. فالتاريخ الكائن تسبب بنظر "أركون" في إنشاء جوّ مشحون بين الطرفين، فلم يجد الحل في تحسين الأجواء، بل قرر أن يغيّر التاريخ ..! كما يمكن القول بأن هذه العناية من قبله في صياغة مرحلة ما بعد الاستعمار، تجعله صاحب خط ينفرد بكثير من الخصائص، ويطلق أبعادا متنوعة في الدراسات ما بعد الاستعمارية، وفي المساهمة في صياغة العلاقة بين الغرب والعرب.

**الموضوع؛ فضاؤه المنهجي والإشكاليات المرفقة:**

يعرض "أركون" مقارنته ضمن جملة دراسات جزئية ومتشابهة تُكَوِّن في مجموعها رؤية متكاملة؛ والمقصود بها دراساته النقدية لتاريخ الثورات التحريرية ومرحلة ما بعد الاستعمار بعدّها مساراً واحداً، ويتوجه إلى أسسها القيمية والسياسية والعلمية والتاريخية. بقراءة تنسجم طبعاً مع رؤيته النقدية وأطرها العامة ذات المرتكزات القيمية، وهي موقفه من التراث والتاريخ العربي والإسلامي، بدءاً بمرحلة السيرة النبوية ثم بالمراحل التي تليه. غير أن مقارنته وإن كانت تعنى بالجانب القيمي أهمّ مُكَوِّن للشخصية العربية والإسلامية، وعلى الرغم من مركزته في الإشكاليات المتناولة، إلا أنه يظل مسكوتاً عنه تماماً في طرح "أركون"، ولا يسمى ولا يذكر بالمرّة لا في شكله الديني ولا الإنساني .

من أهم الإشكالات التي ركز "أركون" عليها كثيراً في مؤلفاته وندواته، وعالج ضمنها هذا الموضوع؛ نقده الأنظمة السياسية والمناهج التعليمية والدينية، وانتقاده الوحدة الوطنية المتعسفة بنظره في حق الأقليات، وهي مشكلة ترتبت حسب تحليله على استبعاد الدراسات الأنثروبولوجية من حقول التطبيق والدراسة في الدول المستقلة، كما أن نقد السلطة السياسية لديه متشعب وقد اتخذ متكاً لصياغة نمط جديد من العلاقة مع المستعمر، وفي الآن ذاته يكتفئ البحث عن كل ما يثبت ضعف السلطة السياسية ثم يعمم به خطأها ليشمل موقفها من المستعمر. فالأصولية يجدها صنيعاً الأنظمة السياسية<sup>1</sup>، وتكريس المبادئ اللاعلمية التي تحاكي مبادئ منظري الثورة من قبل، ثم تعليمها، وقد سماها "تجهيلاً" و"تربثاً ظلامياً"، وإفرازات لممارسات سياسية مغرضة، فتمسكها بالتاريخ أو بالثوابت الدينية إنما هو مآرب سياسية .. إنها مقارنة يضمها فضاء من العلاقات والمواقف ترسم بجملتها خطأ فكرياً مؤثراً في خارطة القوى العالمية، بمناحيها الفكرية والسياسية، وقد توجه إليه ليعيد تشكيله، وفق كفاءات يمكن التعرف عليها، وتحديد مساراتها ومصباتها ..

## 1 / الخلفية الفكرية والتأسيس المنهجي:

المقصود بالخلفية تلك المقاربات ذات الانتماء التاريخي في مساره العام، وقد طبق عليها "أركون" الآليات المنهجية ذاتها، بسماطها الراديكالية سواء في تقويمها أو في حلوله المقترحة؛ فهي برأيه إشكالات لا يمكن معالجتها جزئياً؛ حيث يقرر الحكم على التاريخ الإسلامي بأنه فاسد، متبعاً في ذلك مؤرخين يصفهم بالطلبيين وبأنهم فتحوا المجال للشروع « بمراجعة أكثر نقدية وراديكالية لكل تاريخ الإسلام المبكر. و معلوم أن هذا التاريخ كان قد خرب و أفسد إلى الأبد وبشكل لا مرجوع عنه من قبل الصراعات الحامية التي جرت بين المسلمين آنذاك ثم من قبل الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية المحتمة التي روي فيها ودون وكتب وسجل. لقد حوره المدونون الأوائل في اتجاه التقديس والترميز والأسطورة للشخصيات المؤسسة للدين الحق »<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - الفكر الإسلامي، قراءة علمية، قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي و المركز الثقافي العربي، ط1996، ص2،

ص62 .

<sup>2</sup> - نحو نقد العقل الإسلامي، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2009. ص115.

أسس "أركون" حكما راديكاليا على التاريخ الإسلامي، دون جميع التواريخ، ثم أسس به للقول بفساد كل مرحلة أو حدث ترتبا على تلك المرحلة المبكرة أو تعلق بها بشكل ما. فمن البديهي أن التاريخ الإسلامي المبكر هو مرجعية أولى دينية وأخلاقية، استمدت منه الثورات التحريرية والشعوب ما واجهت به المستعمر ثم خلفت وراءها تاريخا شبيها بالأول في مكوثاته. ولكنه لم يعلن رأيه حول صحة أوتاريخية كل ما استمد من هذا التاريخ المؤلّف من « الحكايات والنوادر اللازمنية المروية وكأنها فوق التاريخ ولا تنتمي إلى زمن محدد، وكذلك الأوضاع المقدمة على أساس أنها نموذجية مثالية قابلة لأن تكون قدوة لحياة المؤمنين باستمرار»<sup>3</sup>.

لم يناقش "أركون" صحة المبدأ، ولكنه اختار حلا جذريا لجملة من المشاكل وهو إعادة كتابة التاريخ. وقد استمد أمل إمكانية إعادة كتابته أو استرجاعه مما تعد به العلوم الإنسانية الحديثة، فهي في اعتقاده الراسخ تمتلك من الإمكانيات ما يؤهلها للاضطلاع بهذه المهمة وهي التأريخ لكل شيء ولكل حقبة، فكتابة التاريخ لها متعلق منهجي بما استحدثه المنظرون في هذا الشأن. فقد ذهب "فوكو" والمؤرخون إلى إمكانية التأريخ لكل موضوع، يقول "فوكو": « لسنوات خلت، كان المؤرخون فخورين لاكتشافهم أنه باستطاعتهم التأريخ لا للمعارك والملوك والمؤسسات فقط، بل وللأقتصاد كذلك، وهام الآن مشدوهون نظرا لأن أكثرهم شطارة علموهم بأنه يمكن التأريخ للعواطف والسلوك والأجسام كذلك...»<sup>4</sup>.

ونظرا لتوفر هذا الإمكان وسواه، فإن "أركون" يعلن قدرته على إعادة كتابة هذا التاريخ، ضمن ممارسة اجتهاد جذري يكون على مستوى الحدائث العقلية، وهذه الممارسة هي قراءة أخرى منهجية تتمثل في الكتابة السلبية للتاريخ ويقصد بها، القراءة اللارسمية أو قراءة الوجه الآخر من التاريخ، ذلك أن التاريخ في رؤيته «يكتبه الظافرون المنتصرون»<sup>5</sup>، ويسلطون عليه حسب هذا التسلسل مناهجهم ليستجيب لاختياراتهم.

وفي الواقع، إن قراءة محايدة أخرى، تحتكم إلى إطلاق حكمه وتعميمه ستشمله هو الآخر ومشروعه؛ فما سيكتبه من تاريخ ستنتطبق عليه أحكامه ذاتها، وهو الذي قرر بأن التاريخ يكتبه الظافر فجعل من التاريخ أداة سلطة وسيطرة وصراع، ومنجز المنتصر. وهو بهذا يكون قد منح نفسه وقارئه يقينا بأن التاريخ الذي يتحضر لكتابته، أو بدأ بها \_ حين حكم على الأول بالخراب \_، إنما هو تاريخُ ظافر، إلا إذا تحول إلى نموذج لكتابة الحقيقة المتعالية التي طالما عبر عن احتقارها ورفضها. وعندها كم ستكون نسبة صحة تاريخه ومطابقته الأحداث المنقضية

<sup>3</sup> - الموضوع السابق .

<sup>4</sup> - ميشال فوكو، همّ الحقيقة، ترجمة مصطفى السناوي ومصطفى كمال ومحمد بو العيش، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006، ص 41 .

<sup>5</sup> -الإسلام والأخلاق والسياسة، ترجمة هاشم صالح، منشورات اليونسكو، باريس، ط1، 1986، وبالتعاون مع مركز الإنماء القومي، بيروت\_باريس، ط1، 1990، ص177.

التي لا يمكن مشاهدتها أو استرجاعها؟ وما مقدار فاعليته وظفره؟ إنها وغيرها أسئلة تلزم عن تطبيق قواعد البدائه التي لا تسمح له أن يكون بمنأى عن الدواعي التي اهتم بها كُتّاب التاريخ.

كان من الضروري التعرف على أهم الآليات النقدية التي يطبقها "أركون" على جميع مراحل التاريخ العربي والإسلامي، وهي تعد رؤية ووضعاً منهجياً يرفضان التاريخ ويهدمان موثوقيته. ذلك أن القراءة النقدية التي يمارسها تجعل من التاريخ صناعة رسمية موجهة، كتبت تحت قهر سلطة السياسة، وتمّ شحنها -وفق عرضه- بقصص الأبطال التاريخيين والفتاحين الكبار الذين يملؤون التاريخ، وقد اهتم بهم التاريخ الرسمي ليغذي بهم المتخيل الجماعي للأمة و يربي صغارها عليه، ولكنه لا يفسّر عند انتقاده حضور الأبطال، إن كان ينكر وجود الأبطال في التاريخ أم ينكر استحضارهم فيه من قِبَل المؤرخين، فصورة هذا التاريخ "خطية مستقيمة"، وقد هدمتها مدرسة الحوليات التي يذكر أنه يستمد منها مناهجه <sup>6</sup>.

يأتي هذا التفصيل لأن رؤيته المنهجية في النقد الرفض للتاريخ واقتراح إعادته واحدة، لكنه يقصر تطبيقها في التاريخ على العربي والإسلامي ولا يتعداه، وتداولها المنهجي لديه يتجاوز بكثير دراسة حقب تاريخية بعينها، فهي من العمق بحيث يعامل بها كل خبر يحمل تشريعاً أو معتقداً، بل ويطبقها على مصادر الوحي قرآناً وسنة فتحظى بالأولوية، و هذان الاقتباسان يحيلان على آليته فيهما وهي رفض الخبر التاريخي مع تحويل الفعل فيهما إلى السلطات السياسية إذ يعدّها الفاعل الأساسي؛ فحين يتحدث عن الظروف التاريخية لجمع القرآن في المصحف يقول: « ولا نعرف عنها إلا ما قاله لنا التراث المرسخ بعد أن انتصر من انتصر وانهم من انهزم <sup>7</sup>»، وفيما يتعلق بما يسميه دور السلطة في فرض القرآن الرسمي والتفسير الرسمي - كما يطلق عليهما - يأتي تحليله « هكذا نجد أن هناك صيرورة تاريخية معقدة وملينة بالصراعات، وهي التي أدت في نهاية المطاف إلى تشكيل المدونة النصية الرسمية، المغلقة والنهائية بصفتها أمراً واقعاً... » <sup>8</sup>.

ثمة مسالك ينفذ منها "أركون" إلى تعميم مشروعه متجاوزاً الحيز الإسلامي من التاريخ ليتناوله في مساره الزمني كله، وفي رقعته الجغرافية جميعاً، وفي مشروع استبدال أو إعادة على مستويات أضيق ووحدات تاريخية وجغرافية بعد تأليف ما يسوغها من إشكالات. يوجد لديه نموذج مهم يقربنا من رقعتنا الجغرافية المغاربية، وآخر أشمل يتمثل في إعادة كتابة تاريخ الفضاء المتوسطي، أما ضرورتها فترسم من خلال اقتراح صيغ فكرية لمعالجة مشاكل إثنية، وأوضاع حضارية أو ثقافية طارئة كضرورة إيجاد صيغة للتعايش بين الإسلام وبين الديانتين الأقدم اليهودية والمسيحية في فرنسا، فيقدم مقارنته حول ما يسميه بالأديان التوحيدية الثلاث وعلاقتها التفاعلية مع موروث فلسفي وثقافي أقدم إغريقي وروماني، من أجل توفير موقع أو مكانة تاريخية للإسلام في فصل من كتابه

<sup>6</sup> - المرجع السابق، ص 174 .

<sup>7</sup> - قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2004. ص 189 .

<sup>8</sup> - الموضوع نفسه .

عن إمكانية التعايش مع الإسلام بعنوان "vivre avec l'Islam" فبعد تقاسم مبررات مقترحه في كتابة تاريخ متوسطي آخر مستعرضا الواقع الثقافي والديني والنظام السياسي للدولة الفرنسية يقول: « C'est dans cette perspective qu'une réécriture de l'histoire de l'espace méditerranéen incluant les rôles déterminants des trois religions monothéistes en interaction constante avec l'héritage philosophique grec et les acquis précieux du droit romain, permettrait à l'islam et aux musulmans de retrouver leur place historique réelle avec le judaïsme et le christianisme.. »<sup>9</sup> .  
وبغض النظر عن مصداقية دواعي هذا المسعى من قبله ، فإن الذي يجب نقده هو دأب "أركون" على اقتراح هذا الفعل البحثي وتحضيضه عليه حتى بات معتادا ومطلوبا، وأصبح من الوسائل القريبة المطروقة بسهولة، فمتى وجد مطمحا فكريا يحتاج إلى مسافة تقطع، اتخذ من كتابة تاريخٍ تتعلق به أسلوبا لمعالجته، فتحول التاريخ عندها إلى شيء يستخدم<sup>10</sup> ، أو إلى إجراء منهجي، فكلما صادف مشكلة كتب لها تاريخا.

## 2/ مقارنة الثورة:

إن مسار هذه الدراسة إنما يتوجه نحو علاقة المستعمر والمستعمَر كما يتمثلها "أركون"، وأوّل مراحل مقارنته وبنائها هو مرحلة إعادة كتابة التاريخ الجامع لهما، وهذا يتطلب التعرف على الطبقات المؤسسة لموقفه والمكوّنة من الرؤى النقدية لمن يسميهما طرفي الصراع. ذلك أن أركون حين يحلل الثورات التحريرية عموما والجزائرية خصوصا يعتمد تجاهها نقاط نقد مركزية، منها اتهامها بمعاداة العلم أو اللاعلمية، مع التأكيد على أنه لا يأتي البتة على بيان مراده من العلم بشكل صريح، إلا ما يتضح بجمع الفقرات ومقارنة السياقات..  
يقرر أركون بأن خط الثورة الجزائرية التحريري كان رافضا للمبادئ العلمية. وكفى بها تهمّة جذرية وعنيفة، يعزل فيها مسار التحرر ومكوناته عن العلم ؛ يقول: « Je rappelle que la guerre d'Algérie conférerait alors une intensité dramatique à toute intervention scientifique dans le domaine arabe et islamique. La quête marxiste de la vérité trouvait là un champ idéal d'application, mais aussi d'expansion idéologique »<sup>11</sup> .  
العالمية الثانية «حصل أن حركات التحرر الوطني السياسية استطاعت أن تجرّ لصالحها القوة التعبوية أو التجيشية الهائلة للإسلام في الوقت الذي حافظت فيه على قشرة سطحية من التوجه العلماني التحديشي والاشتراكي »<sup>12</sup> ، ويتضح هنا مفهوم العلم المهمل من قبل الثورات. ثم يؤكد أركون نقده السابق، متوجها إلى استراتيجيتها الدفاعية التي لم توظف سواها وفرضت « تعبئة فكرية إيديولوجية للمعركة، ولم تكن أبدا وليست كذلك اليوم تعبئة فكرية وعلمية

<sup>9</sup> - ABC de l'Islam, pour sortir des clôtures dogmatiques, éd Grancher, 2007 , p 344.

<sup>10</sup> - هذا المصطلح "الشيء المستخدم" اعتمده إدوارد سعيد في كتابه فرويد وغير الأوروبيين..

<sup>11</sup> - Humanisme et Islam, combats & propositions, éd, barzakh, Alger, 2007, p 98.

<sup>12</sup> - قضايا في نقد العقل الديني ، ص 172 .

مسؤولة»<sup>13</sup> ، كما يقدم نقدا مزدوجا لسياسة الثورة « ثم استخدمت حركات التحرر الوطني قوة الإسلام التعبوية من أجل التخلص من الاستعمار عسكريا وسياسيا، ولكن الأولوية أعطيت للتحرر الوطني والسياسي من الاستعمار...»<sup>14</sup> ، حيث يربط "أركون" بين نقد الثورات التحريرية و بين صياغة الضرورة لتطبيق المناهج الحديثة على القرآن والحديث وعلوم التراث ، وهي العملية التي تعطي التحرير كما الداخلي، وإهمالها آخر هذا النوع من التحرير والسبب في ذلك ورد في حوار له: « كانت الأولوية تعطى لحركات التحرر الوطني والصراع ضد الخارج. و هذا شيء مفهوم ومشروع كما قلت لك، ولكنه آخر من عملية التحرير الداخلي، لأنك لا تستطيع أن تقوم بالعمليتين دفعة واحدة»<sup>15</sup> ، ثم يكشف في موضع آخر عن الخطأ المنهجي في مسار الثورات وفي خط القيم المنتهج من قبلها بحسب تحليله؛ « في الفترة التي انخرطت فيها البلدان العربية في حروب التحرير الوطنية التي أحدثت لها انقطاعا عن أهم المكتسبات العلمية الحديثة لجأت هذه البلدان إلى ما يسمى بالأصالة والقيم الإسلامية من أجل توكيد شخصيتها تجاه المستعمرين»<sup>16</sup> . وعليه، فإنها قد فوتت على نفسها الاستفادة مما حصل في تلك الفترة من « مراجعات جذرية وتقدم هائل في ساحة العلوم الإنسانية منذ 1950 »<sup>17</sup> .

ولذلك فإن أركون يمارس إسقاطا واحدا على ما تحقق من التحرير في الوطن العربي لأن تلك الثورات لم تكن قد كرس ما يسميه بالتحرير العقلي وقدمت التحرير السياسي -حسب إطلاقه- على حساب العقلي، ومن ثم فهي لم تكن قد تحررت على الحقيقة، بل إن ما حصل لها يصفه تارة بالتحرير الوهمي وتارة بالتحرير السياسي أو بوصف دولها تلك بعبارة<sup>18</sup> « Les pays qu'ils sont censés libérés » ، والسبب ليس ما ينتقد عادة من ممارسات امبريالية عليها، بل لأنها لا تزال محتلة بالخطابات الإيديولوجية ورجال الدين<sup>19</sup> ، بينما التحرير الأكبر هو الفكري وهو الذي ينقصها<sup>20</sup> .

<sup>13</sup> - وحدة المغرب العربي، مشاركة بعنوان " الفضاء الاجتماعي والتاريخي للمغرب العربي"، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1987، ص 33-34 .

<sup>14</sup> - قضايا في نقد العقل الديني، ص 172 .

<sup>15</sup> - المرجع نفسه، ص 223 .

<sup>16</sup> - تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي و المركز الثقافي العربي، ط3، 1998، ص 141 .

<sup>17</sup> - الموضع نفسه .

<sup>18</sup> - la pensée arabe, Dépôt légal, 8<sup>e</sup> éd, 2010, p10.

<sup>19</sup> - نحو نقد العقل الإسلامي، ص 355، 356 .

<sup>20</sup> - قضايا في نقد العقل الديني، ص 223 .

يذكر أركون أيضا أنه لم يستطع كتابة تاريخ نقدي، ولم يخبر إن كان قد قدم المحاولة حينها فيقول: « لقد كنت شاهدا على حروب التحرير من أجل الاستقلال وشاركت الأجيال المنخرطة فيها أثناء الخمسينات والستينات آمالها الكبرى. ثم زادت الثقة بالنفس والفرحة العارمة بعد نيل الاستقلال السياسي واسترجاع السيادة المهدورة. ولم نكن نستطيع آنذاك أن ننظر إلى الوراء لكتابة تاريخنا من وجهة نظر نقدية لا أيديولوجية. فقد كان الجميع مشغولين بالنضال السياسي و ما يترتب عليه من مسؤوليات. ولكننا لو استطعنا أن نقوم بكتابة تاريخنا بشكل نقدي، لحررنا الأجيال التالية من التصورات الأيديولوجية والتبجيلية للتراث. لكننا قدمنا صورة تاريخية عن التراث تحل محل الصورة التقليدية الموروثة. و لكننا قطعنا الطريق عندئذ على انتصار الأيديولوجيا الماضوية بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ (أي من تاريخ الاستقلال)»<sup>21</sup>.

كما يجمع "أركون" في مقارنته الثورة بين سياسة قادتها آنذاك وسياسة الأنظمة التي تولت مقاليد الحكم، ويجري عليها الحكم ذاته لأن مواقفها برأيه واحدة، خاصة في اختياراتها العلمية وفي موقفها من الاستعمار. ويرى وضع الاستقلال مزريا بسبب السياسة المتبعة التي أدت إلى تخلف اجتماعي وفكري، ولزمت خط الثورة العلمي أو اللاعلمي! ولم تختار الطريقة الجديدة « للبحث العلمي والتدريس المستنير العقلاني للدين»<sup>22</sup>، بل كرس "التجهيل" و"التثريب الظلامي"<sup>23</sup>. إن السياسة التي التزمها قادة التحرير في العالم العربي لم تحقق نتائج حقيقية بل كانت انتصارات سريعة الزوال أعقبها الانهيار العنيف والهزيمة المرة والقاسية، على حد تعبيراته، فالأنظمة أوهمت الشعوب في أزمة 1967م بأن النصر على الأوباب، وحال الجميع واحد مصر "عبد الناصر" كجزائر "بومدين"<sup>24</sup>؛ كلها أنشأت الأصولية في البلاد العربية ومن ثم يستنتج بأن نظريته تؤكد على أن الأصولية هي بنات الأنظمة العربية.

ويعرض في تحليله عاملين وكلاهما فعل أسطوري وإيديولوجي، تسببا في ذلك الوضع ينسبهما إلى قادة التحرير، أما الأول؛ فهو التعقيم الكامل والمطبق على التاريخ الحقيقي للعقل في مساره الإسلامي زمن الاجترار وما قبله من نهوض و انتعاش للعقل في أوروبا، وأما الثاني؛ فيتمثل في معاملة منجزات العقل والحضارة الأوربيين بالخفض منهما، والغريب أنه يرى هذا التخفيض قد تمَّ عن «طريق التركيز على جرائم الاستعمار ومجازره وهكذا أضافوا إلى تغييب التاريخ الحقيقي الفعلي الحاسم ولكن غير المجيش للجماهير تلك المبالغة في وضع كل مآسينا على شماعة الاستعمار وإظهارنا بموقع الضحية باستمرار وإعفاء أنفسنا من أية مسؤولية عن التخلف الذي لحق بنا. وهذا

<sup>21</sup> - قضايا في نقد العقل الديني، ص 223 .

<sup>22</sup> - نحو نقد العقل الإسلامي، ص 356.

<sup>23</sup> - المرجع نفسه، ص 354 .

<sup>24</sup> - الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ص62، و في بيان العلاقة بين بومدين والأصولية في الجزائر يحيل على كتاب بول بالطا وكلود

ريلو بعنوان: La stratégie de Boumediene, Sindbad, 1978.

الخطاب الإيديولوجي الذي ما انفك يدين الاستعمار والإمبريالية لا يزال مربحا إذا جاز التعبير بالنسبة للديماغوجيين الجزائريين والعرب ككل حتى بعد مرور ستين سنة على نهاية الاستعمار... أقول ذلك وأنا خائف وأضع يدي على قلبي لأني واثق من أنهم سيصرخون قائلين : يا للفضيحة إنه يدافع عن الاستعمار..» <sup>25</sup> !

ورغم ما يغيبه به خطابه بإفصاحه عن مخاوفه في كونه موضع تهمة، وخطابه في الحقيقة لا يحمل الدفاع بقدر ما يحمل التخفيف والتبرئة والإعفاء وإحلاء جانب المستعمر.. وإلصاق السياقين في معادلة واحدة يُعدُّ جملة من المغالطات، وأهم وظيفة يؤديها هي تغطية جل الحقيقة، وهي تاريخ لا تحصى جرائمه حقيقة لا مجازا، كما يؤدي وظيفة تبييض لماضي المستعمر حين ينقله من موقع المعتدي إلى موقع يصبح فيه شماعا لم تفعل شيئا ورغم ذلك يعلق عليها كل شيء ! لا يغير اعترافه من واقع وظيفة خطابه شيئا لأنه عمليا وماديا ومعنويا يخدم جانب الاستعمار ولو أضاف له تلك الجمل التنكيرية والتمويهية...

### 3/ مقارنة الاستعمار:

تعد مقارنة الثورة و مآخذها المرحلة الأكثر أهمية في العلاقة بين المستعمر والمستعمر وفي صنع التاريخ المزمع إعادته، وتليها في الأهمية مقارنته بجانب الاستعمار ومآخذه عليه أيضا.

لطالما انتقد "أركون" المنظومات التعليمية لدى العرب والمسلمين، زمن الثورة والاستقلال. ويضيف أيضا ما يعد لديه تقصيرا في هاذين العالمين؛ «الجهة العربية والإسلامية، ملينة بالتزمت والجهل بالحضارة الأوربية ومنجزاتها التحريرية والتويرية» <sup>26</sup> ، هذه المنجزات الأوربية تمثل بحق بيت القصيد لدى "أركون" و يراها حفا عظيما نالته أوربا ولم يعرفه العالم العربي والإسلامي لا طواعية و لا بالإكراه، فكانت به أوربا متطورة ومشرقة، وكان العالم العربي بحرماته منه متخلفا مظلما ! هكذا وبهذه اللهجة والروح الناطقة عن مركزية أوربية من غير أوربي يتحدث عن أسباب كون الأنوار حكرا على أوربا يقول : «هل نحن بحاجة للقول بأنه لم يحصل في تاريخ الإسلام حتى الآن أية قطيعة فلسفية وسياسته مشابهة لتلك التي حصلت في فرنسا مع التنوير و الثورة الفرنسية 1789 - 1792؟ أقصد بذلك أنه لم يحصل إحلال بالقوة لمخيل علماني وجمهوري للمشروعية محل المخيل الديني والمسيحي الذي رمي مع العهد الملكي القديم المطاح به في ذمة التاريخ [...] ولكن هناك فرقا أساسيا بين حالة المسيحية وحالة الإسلام، وهو أنه حصلت كما قلنا قطيعة فلسفية وسياسية في المسيحية الأوربية بعد القرن الثامن عشر أي بعد التنوير والثورتين الإنكليزية والفرنسية في حين أن ذلك لم يحصل في الإسلام العربي ولا غير العربي حتى الآن» <sup>27</sup>.

عندما تناول "أركون" الثورة والمستعمر بالنقد، توجه أساسا نحو الخط العلمي والقيمي الذي اختارته الثورة وكان إنكاره عليها صريحا، وكذلك كان موضوع نقده الأول للاستعمار وجوهه - إن لم يكن الأوحده - هو خيانة

<sup>25</sup> - نحو نقد العقل الإسلامي، ص 239 - 240 .

<sup>26</sup> - المرجع نفسه، ص 163.

<sup>27</sup> - الهوامل والشوامل حول الإسلام المعاصر، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2010، ص 221 - 222.

المستعمر أنواره. ليس المقصود خيانتها بالاحتلال كما يتبادر إلى الذهن، ولكن باحتكارها وعدم نشرها بين المستعمرين! و قد اتضح أنه يريد بالأنوار الحظ الفكري والقيمي والعلمي للمستعمر، ويستنكر أركون في هذه الفقرة تعامل المستعمر مع مكتسباته العلمية، فيعرب عن فلسفته الكاملة في هذا الشأن : «... و للأسف فإن كل هذا لم يشهده عالم الإسلام حتى الآن. و المؤسف أكثر هو أن النظام الكولونيالي الأوروبي الذي استعمر بلداننا لم يفكر لحظة واحدة في جعلنا نستفيد من هذه الثورة الفلسفية السياسية. لم يخطر على باله أبدا أن ينشر عندنا المكتسبات الأكثر خصوبة و إيجابية للثورات السياسية والعلمية والثقافية الأوروبية. لقد تركنا نتخبط في جهلنا وتأخرنا، بل ورسخ هذا التأخر أكثر لكي نظل بحاجة إليه وتابعين له، ونحن ندفع اليوم الثمن الباهظ لهذه الخيانة للمثل الإنسانية العليا للتبوير من قبل القوى الغربية العظمى [...] ونلاحظ أن هذه الاستقالة الأخلاقية تتكرر أيضا مع الاتحاد الأوروبي على الرغم من أنه يعلن ظاهريا عن تمسكه بالرسالة الإنسانية للفضاء الأوروبي الجديد الخاص بالمواطنة تماما كما كان يعلن أرباب

28

الاستعمار نفس الشيء سابقا » .

هذا اللوم الصريح على القوى الاستعمارية السابقة والحالية لأنها لم تغرس بذور التبوير في عقول مستعمرها، يكشف عن تناقض عقلي صريح، لا تقبله سلامة الطبع، ولا يستقيم إلا لدى من يعاني فقدان حيز الذات التي يفرض وجودها الممانعة تجاه الآخر ولو بقدر يسير، وخاصة إذا كان باغيا. إن محاولة إيجاد نسق في الفقرة السابقة هي محاولة بائسة قطعاً! لأنه إذا كان يعتقد صادقا أن قيم المستعمر أو (أنواره) هي قيم صحيحة وتعني حقا الحرية والمساواة، فيجب أن لا يكون مستعمرًا. وإذا قُبل تناقضه كيف ينتظر منه أن يبذر فيه الإخاء و المساواة والحرية، وهو المستعمر الذي يُشترط لوجوده محو مستعمره وإزالتهم. إنها جمل حشوها التناقض، وطعمه في غير مطعم، ويتطلب جمع ما لا يجتمع! حيث يرجو منه ويتوسم فيه أنه يعلم و ينور و بماذا استباح قتل البشرية، فنظرته إليه إذن إيجابية! بل إن "أركون" يستعمل في معاملة المستعمر معجم ألفاظ لينة ويصفه بالخذلان، كالقريب أو الولي! إن خيانة المستعمر الفعلية الحقيقية إنما هي للمبادئ وللعلم، وتمثل في الاحتلال، وهذه مسألة لم تطرح لديه بالأساس، بينما كان امتناع المستعمر عن نشر مبادئه الفلسفية والعلمية محور النقد كله. وتبقى الفقرة السابقة تحتمل قراءة في موقفه على اعتبار كونه غير متناقض، ويرى قيم المستعمر أنوارا ومثلاً، وينتظر من المستعمر أن يقوم بنشرها لأنه لا يوجد من يقوم بذلك بدلا عنه. ويراها مألوفة، حتى إنه يسميها تنويرية، وهي متصالحة مع الاستعمار، تقبله، بل هو من يغرسها! وفي هذه الحالة نحتاج إلى ما يعرف الأنوار والقيم العلمية التي بخل بها الاستعمار وترك مستعمرية يتخبطون كما وصفهم "أركون"... إن طرحه هذا يشير العجب من التصالح والتناغم والانسجام والألفة بين العلم والقيم وبين الاستعمار لدى "أركون" والذي تبشر به كتاباته ومشاريعه الفكرية والتاريخية.

إن الأسلوب الذي يعرض به "أركون" وقائع المرحلة الاستعمارية يدعو إلى العجب، حيث يسرد ما يأتي: في عام 54 كان إعلان الحرب من "أجل إقامة الدولة الجزائرية السيدة .."، وهذه تعبيراته \_ «وفي عام 59 فطنت فرنسا الكولونيالية أخيرا إلى ضرورة إصدار قانون يمنع طرد المرأة من قبل الرجل أو تطليقها التعسفي ويفرض على الجزائريين المجريبات القانونية الحديثة للطلاق»<sup>29</sup>، وتتممة الواقعة أن الجزائريين رفضوا القرار والتدخل وأصدروا بيانا ضده لأن قوانين فرنسا لا تناسب شريعتهم، والشاهد في الموضوع هو الانتقائية في الشواهد التاريخية التي تنقلب ضده وتُظهر فرنسا بصورة الدولة الملتزمة بالقوانين ولها إجراءات عادلة ! إذ كيف يتصور من فرنسا الاستعمارية أن تنصف المرأة الجزائرية من تعسف زوجها الجزائري الذي تخبرنا الإحصاءات عنه أنه غالبا قد قتل على يد الاستعمار! وكان الأولى به أن يستحضر عدد الأراذل، كواحد من العوامل المساعدة على دراسة هذه الحادثة ..

#### 4/ المفاهيم والقيم : التحويلات والوظائف

لا شك في أن أركون قد قدم في المقاطع البحثية السابقة ومسالكتها جملة من الإجراءات المنهجية التي اعتمدها بوعي أو بدونه، و بواسطتها عالج مشكلات فكرية عميقة وتاريخية تتعلق بأهم في وجودها وبقيتها وما يقتضيانها، وقد تناول دراسة كل واحدة على حدة في عمل تحليلي ونقدي ثم تنظيري للعلاقة بين الطرفين معًا تمثل في إعطاء بدائل من المفاهيم والصيغ والبناء المنهجي وكيفية، وقد تكوّن عمله من طبقات ومراحل؛ من المسكوت عنه والمحوّل عن طبيعته، ولا يمكن تفصيلها جميعا، كما لا يمكن إغفالا أيضا تماما، فكان لا بد من الإشارة إلى شيء منها.

من أكثر ما يُلمس من تلك الإجراءات المطبقة لديه هنا وأوضحها هو تحويل المفاهيم والقيم، فاستبدل بها أخرى غيرها من حيث أصلها وطبيعتها ووظيفتها. ومن المفاهيم التي اشتغل عليها، ما يتعلق بالخلفية القيمية السلبية للاستعمار، - إن كان يصح وصفها بالقيمية - وقد عاملها معاملة المسكوت عنه بمفهومه لديه، فلم يناقشها ولم يرددها مع أنها قيم سلب وعدم، بل إنه قفز عليها وتجاوزها إلى ما يعد مذاهب فلسفية واختيارات فكرية وسياسية وعاملها معاملة القيم، وطالب بتعميمها، ثم إنه فوق المسكوت عن حقيقته القيمية أضفى عليه ميزه حيابة الأنوار؛ وعندها يتم تمويه خلفيته، ولا يخفى أن هذا المفهوم الجديد عن الاستعمار يؤدي وظيفة إيجابية ويقدم له خدمة مثلى، حين ينسب له شرف العلم والأنوار وكلاهما سيعطيه حتما سمعة حسنة و شكلا جميلا، أو لائقا ومتوازنا على الأقل...

وثمة أيضا جملة من المفاهيم الشاذة والأفعال المستنكرة في كل المعايير البشرية أخفاها خطابه وغطى عليها بالمسكوت عنها، وازداد خفاؤها حين أثار غيرها، كتغطية جريمة المستعمر في الاحتلال والإبادة، حيث لم يأت لها ذكر البتة! وفي المقام ذاته أثار ما ليس بجريمة ولا خيانة وناقشها على اعتبار كونها فعلا مشينا وخيانة، وهي ما أسماه « خيانة الأنوار من قبل المستعمر» لأنه لم يعممها بالقوة \_ مع أن الاستعمار نشر قيمه تلك ورغّب فيها

29 - نحو نقد العقل الإسلامي، ص52.

وفي الماديات\_ ؛ وأصبح هذا الموضوع هو الأجدر بالنقد ومحورا بعد أن كان لا يعني أحدا ! والشاهد في هذا المثال هو لفت الانتباه إلى ما أحدث في مقارنته من الإجراءات المنهجية فاشتغل على تحويلات للمفاهيم والمعايير، وهي تطال مستويات وموضوعات كثيرة في معالجته، وهي أيضا مركبة؛ حيث يتم التحويل على مستوى الموضوعات المطروقة فتختفي الأجدر منها بالنقد والطرح كنفذ الاحتلال أو تمجيد الحرية، وتبرز غيرها مما لا ترقى لأن تكون موضوعا خاصة لدى أمتنا فتجري جملة من التحويلات على المفاهيم الشاذة كنسبة الأنوار للاستعمار ! ويتم تمريرها على أنها مفاهيم طبيعية دون الكشف عن حقيقتها ؟ فلا تسمى ولا تعرّف ، بل تكسى غطاء قيميا وعلميا لا يُفصّل، وتقدم في شكل مطلب إنساني وعلمي ضروري لقيمة تنويرية فضلى! مع أن الاستعمار وأنواره والنسبة بينهما كلها مفاهيم عدمية وفارغة لا أصل لها، فيجمع بين النقائص، ويدير الخطاب المقترح بلا حرج حول قيم المستعمر، وتصبح جريمته في الموازين الجديدة هي احتكاره فلسفته التي كان يجب عليه فرضها بالقوة، بعد أن كان الاحتلال والسلب والقتل هو الجريمة التي تختفي في خطابه وتصير هي المسكوت عنه أو الممنوع ذكره ! كما تختفي في المقابل القيمة الإيجابية، وهي تحرير الأوطان والإنسان، والحفاظ على مقومات الشخصية أمام المستعمر، لتظهر بديلتها القيمة السلب، وهي الاحتجاج على احتكار المستعمر أنواره، ولا بد من التأكيد على أن نسبة الأنوار للاستعمار تزيل عنه القبح وتجعله على الأقل طبيعيا ومألوفاً ! فضلا عن المعاني التي تُحوّل إلى نقائصها وتقدم بألفاظ أضدادها، فالتعليم تجهيل، ومعرفة الأصل تزيث وظلام، و اللادين مثل عليا وحق واجب للبشر كالماء والنار لا يمنعان، وقس على ذلك...

والشاهد في هذا التناول جميعا هو الوسائل والإجراءات الممارسة على المعنى والمفهوم والقيمة وفي استعمالاتها، إذ أجريت عليها عمليات عميقة، يتركز الاشتغال فيها على تحويل بنيتها أو تركيبها الفكرية؛ بالطمس أو الحذف أو الاستبدال، ثم بإحلال أخرى محلها لتمنح الأخرى وظائف تؤديها فتجعل من الشاذ طبيعيا أو شبيها بالطبيعي في استبدال شامل.. وهنا يمكننا التساؤل ؟ هل ينبع هذا الطرح من ضرورة تقتضي التحليل والنقد؟ أم من ضرورة تقتضي وظائف كالتحويل والاستبدال؟ وهل هذه المعالجة تعبّر عن مشاريع فكرية للإنسانية عامة أم هي صناعة وإنتاج قيم محوّلة وفق شروط وظروف منتخبة وخاصة؟ وما المسكوت عنه على الحقيقة ؟ ولا بد هنا من متابعة وفحص الخصائص والوظائف التي تؤدها المفاهيم والقيم البديلة المطروحة في المرحلة البحثية والفكرية التي أنتجتها ثم في المراحل الفكرية والتاريخية المزامنة لإنتاجها فقد تأكد لغة ودلالة أنها تؤدي وظائف على مستوى المعنى وعلى وعي متلقيها و لاوعيه، وأكثر وظائفها بدهاء بسط الألفة مع المستعمر وفقدان عدائه وترك الرية به، كما لا تخفى فاعليتها وأدوارها على المستويات الفكرية والتاريخية والحضارية على المدى القريب و البعيد..

### كتابة التاريخ المشترك؛ يوطوبيا كونية أم تغيير سنن التاريخ؟

\*/ مقتضيات الكتابة وظروفها وآفاقها...

يقترح "أركون" بالتكامل مع الإشكالات السابقة جانبا تنظيريا يُقدّم عليه، وهو المساهمة في صياغة المرحلة التي تعقب الاستعمار، وذلك من خلال كتابة تاريخ مشترك ومتضامن للمرحلة الاستعمارية، ربما كان مطلبا

أساسيا لتشكيل نمط لعلاقة وفق ما ينبغي أن تكون عليه .. فبعد دراسة تحليلية نقدية قدمها لطرفي الاستعمار، ينتقل لرسم أفق أفضل لمستقبل الخصمين التاريخيين، من خلال تكوين عناصر تسهم في إقامة مقترحه السابق والذي يعلن عنه في قوله: «.. أنا أفكر في القيام بكتابة متضامنة ومشتركة لتاريخ المرحلة الاستعمارية. وهي كتابة ينبغي أن يساهم بها الباحثون الأكفاء من كلا الطرفين الغربي والعربي أو المسلم عموما. يمكن أن يساهم فيها كل مثقفي المغرب والمشرق والاتحاد الأوربي» <sup>30</sup> !!

والتساؤل يطرح حول معنى كتابة مشتركة ومتضامنة، من قبل خصمين تاريخيين حول الحق المتنازع عليه، ليتعلق بها من حيث ضرورتها ومنشؤها. والإشكالية عامة بطبيعتها لا تقبل التخصيص، و"أركون" يعممها ثم يخص أحيانا حالة الجزائر وفرنسا، والتساؤلات تبقى عامة لأن الحق الذي كان وسيظل موضع نزاع هو عام وأزلي، ولا يمكن تخصيصه برقعة مهما اتسعت، ومن ثم فإن جوهر مقترحه يفرض اختبار طرحه من حيث الواقعية والتوهم أو الخيال، ويفرض تفحصه من حيث كونه مطلبا طبيعيا أم شاذا، وما الذي يقتضيه؟ هذا في حال خصوصية طرح أركون، أما في التناول الفكري العام، يلزمنا معرفة ما الذي يجعل تغيير التاريخ والماضي مطلبا لدى صاحبه؟ وإعادة كتابته هي صيغة لتغييره، فالإعادة بالبداهة تقتضي الحو والإلغاء للسابق، وهي بديل حضر ليؤدي وظائف لم يؤديها التاريخ الأول أو حال دونها!

أما جملة المبررات التي شكل منها "أركون" قاعدة لمقترحه، فمنها ضرورة تجاوز الصراع وتناسي الأحقاد وتخطي الخلافات والإدانة والاتهام، وتغيير الواقع العقيم الذي يعيشه الطرفان! كما يستحضر ضرورة إحياء الفكر النقدي المهجور في البلاد العربية الإسلامية ولكنه لا يبين وجه التلازم بين إحياء الفكر النقدي وإعادة التاريخ، وهو يعد بأن تطبيقه سيثمر نتائج خصبة! هذا من حيث دوافعه أما أهدافه التي يصرح بها فهي: « والهدف من هذا البحث المشترك و المتقاطع بين الباحثين الغربيين والباحثين المسلمين أو العرب هو الخروج من مرحلة المواجهة الصراعية والجدالية الحامية والإيديولوجية والديماغوجية التي سيطرت على العلاقات بين الطرفين منذ الاستقلال وحتى يومنا هذا أو حتى منذ اندلاع حروب التحرير الوطنية ضد الاستعمار في أوائل الخمسينات من القرن الماضي. ومعلوم أن العلاقات بين الطرفين تعاني من انفجارات العنف والغضب والإدانة واللعنات المتبادلة والاتهامات والانتهاكات المضادة، ينبغي الخروج من هذا الجو المشحون بالكراهة والذي طال أكثر مما يجب، لكي نتوصل إلى جو أكثر رزانة .. » <sup>31</sup> هذه

الدوافع التي قدم بها "أركون" الصياغة لمشروعه توهم بالحاجة لمقترحه، وهي في الواقع لا تتناسب مع جذرية المقترح لأن تهدئة الأجواء المشحونة لم تستدع قط تغيير التاريخ في تاريخ البشرية جميعه.. مما يؤكد أنه يؤلف المبررات ويبني لها صيغا منهجية وسياقات فكرية لتمريرها، ذلك أن مطلب إعادة التاريخ للمرحلة الاستعمارية وبالاشتراك الوهمي بين طرفي الاستعمار يعد مشروعا مبتدعا وغير مسبوق ولا مفسرا، واقتضاؤه تمتحنه المعطيات التاريخية

<sup>30</sup> - نحو نقد العقل الإسلامي، ص 45 .

<sup>31</sup> - الموضوع نفسه .

والمستقبلية للبلدين، أما من حيث أهميته الفعلية فهو مشروع لا يختص بالأفراد ولم يقتصر على "أركون" وإن قدمه وصاغ له المبررات وتبناه بعمق، واشتغل عليه كواحد ممن نادوا به وأسسوه.

### \* / وحدة المسار في الكتابة المشتركة مع المقترح الفرنسي:

تشترك الدراسة المقترحة من قبل "أركون" من حيث التأسيس والأهداف مع مشروع يقدم الفكرة ذاتها بكيفياتها وتطبيقاتها ويطالب بها، صدر عن جهات منحتة الصبغة الأكاديمية، وتمثل في الملتقى الذي قدم في "ليون" بعنوان "من أجل تاريخ فرنسي جزائري" بعنوان تفصيلي؛ « من أجل تاريخ نقدي ومواطني بعيد عن الضغوط الرسمية ولوبيهاات الذاكرة»<sup>32</sup>، ولاشك أن هذا يدل على وحدة المضمون وتنوع المساعي. فما تقدم به "أركون" ما هو إلا نسخة منه، توجهت نحو بناء الضرورة التاريخية والفكرية للمشروع، ولا يمكن نسبة العمل إلى المؤسسات الأكاديمية والعلمية وإن تولت تقديمه، لأن طابع الموضوع وأبعده يؤكدان رسميته وتداوله فهو لا يمكن إلا أن يكون مشروع دولة وإن قدمه أفراد أو مؤسسات أكاديمية في كتب أو ندوات علمية..

### دوافع الكتابة شروطها وآلياتها:

تنسجم معالجة "أركون" وأعمال "ملتقى ليون" وتتكامل معها في دوافع مشروع الكتابة المشتركة للتاريخ الفرنسي الجزائري وفي أهدافه، وكذا في النقد الموجه للظروف السياسية لما بعد الاستقلال، إذ أن كليهما يعيَّب التسوية في التقويم والاعتبار، ولا يطرحان مسألة الحق، وكلاهما يصف استياءً بالغاً مما جناه المستعمر عند خروجه من الجزائر، مع أنها نتائج طبيعية؛ « بالفعل تمت تصفية الاستعمار في الجزائر بالدم والحرب والآلام وهروب الأقدام السود الولهان في 1962. يطبع المقاربات الحالية لهذا التاريخ الشغف والمرارة والحقد والضغينة والإيهام والمغالطة. ينبغي إذن تجنب كل ذلك والنظر في هذا الماضي الفرنسي الجزائري بكل موضوعية..»<sup>33</sup>، وكذلك شأن كل مبررات إعادة التاريخ للمرحلة الاستعمارية تتوجه بكم من الإدانة والاستنكار إلى أطراف ثلاثة على الأقل، وكلها لدى الجانب الذي كان مستعمراً؛ أولها؛ الذاكرة الجماعية؛ ويؤخذ عليها فعل التذكر، ويتم تجريمها ووصفها "باللوبيهاات الذاكرة"، وثانيها؛ الحكومات والأنظمة الرسمية التي يصفها "أركون" بالمارقة والبوليسية وبالمضادة لشعوبها، ويقرر في مشروعه ضرورة تقويم حصيلة حكمها بعد رحيل المستعمرين، لإنجاز مقارنة بين ما حصل إبان الاستعمار وما

<sup>32</sup> - وقد انعقد بمدينة ليون الفرنسية، ونظم في المدرسة العليا للأساتذة للآداب والعلوم الإنسانية بتاريخ 20 - 22 من جوان 2006، بعدها تم إخراجها في كتاب أكثر تفصيلاً بعنوان "من أجل تاريخ فرنسي جزائري".

<sup>33</sup> - من أجل تاريخ فرنسي جزائري، إنهاء الضغوط الرسمية ولوبيهاات الذاكرة، محاولة لوضع أعمال الملتقى المنعقد في المدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية بليون في 20 و 21 و 22، جوان 2006 في المنظور الإبتسمي والمنهجي؛ وعنوان الملتقى حدد كما يلي: "من أجل تاريخ نقدي ومواطني وضعية التاريخ الفرنسي الجزائري"، بإشراف فريدريك آيكاسيس، وحلبار ميني، ترجمة: حولة طالب الإبراهيمي، إيناس للنشر، الجزائر 2011، ص 11.

حصل بعده ! فهذا بنظره يساهم في التشخيص الذي يتطلبه تمهيد جوّ أفضل بين الطرفين<sup>34</sup> ، لكنه لم يصف الاستعمار بواحد مما وصف به الأنظمة بل كان محصنا في خطابه من كل إساءة. وعلى النحو ذاته يتهم "ملتقى ليون" الجانب الرسمي الجزائري كما يأتي: « من جهتها يبدو أن الدولة الجزائرية تتجه نحو احتكار كتابة التاريخ، وعلى تعليمه، اتجاه لا يمكن أن نقره أبدا. إن الأرشيف التاريخية<sup>35</sup> الجزائرية تابعة مباشرة للرئاسة ولا يمكن للباحثين الاطلاع عليها إلا بترخيص خاص »<sup>36</sup> . أما الطرف المدان الثالث فإنه الشهادات التي توثق فعل الاستعمار ومقاومة الجزائريين ويوصف بالآتي: « نسمع خطابا تضحويا يندد بـ"سياسة الإبادة" التي قامت بها فرنسا في الجزائر، خطاب مغلق لا يهمله إلا تصوير الطابع الشيطاني للاستعمار. يتغافل كل هؤلاء الحواريين وكل محرري المذكرات الوقائع المعيشة طيلة فترة الاستعمار »<sup>37</sup> .

يظهر كذلك فاعل يُتَّهم بأنه معرقل لهذا العمل ويواجه بسخط عنيف من قبل دعاة الكتابة المشتركة، يسميه أركون "بأنظمة النبد والاستبعاد" لكنه لا يُعرِّفه بدقة، ويذكره في قوله: « ومعلوم أن هذه الأنظمة الاستيعادية المتبادلة بيننا وبين الآخر (أعني أنظمة النبد والإقصاء) لا تزال للأسف الشديد سارية المفعول حتى الآن. ولا تزال الحواجز النفسية والاجتماعية والسياسية بين الدول والأعراق والشعوب على المستوى العالمي كله... باختصار: إنها لا تزال تسمم الأجواء وتمنع الناس المختلفين في الدين أو القومية أو المذهب من التواصل والحوار الطبيعي »<sup>38</sup> . هذه الأنظمة أو المجموعات المذكورة هنا إن لم تكن هي المقصودة لدى المشتركين في دعم الكتابة المشتركة فهي تؤدي وظيفة مشابهة وتمنع الجهود أو تقطع عليها الطريق كما ورد في كتاب "التاريخ المشترك": «فليست السلطة التي تضغط مباشرة على المؤرخين ولكن المجموعات المنتظمة التي تدافع عن ذاكرة دون أخرى، والدولة تترك اللعبة تجري. وهي تعيد لعبة الحرب، تأمر هذه المجموعات المؤرخين بتبني تصورها للماضي، تصور لا يقبل أن يناقش أو أن يلطف ولا حتى أن يفند»<sup>39</sup> .. بهذه اللهجة الصارمة والاحتجاج يجري وضع بنود الكتابة التاريخية المشتركة للمرحلة الاستعمارية وشروطها، وآليات تطبيقها، ويقوم به جانب واحد هو المستعمر ويغيب الثاني في هذا الاشتراك! لتؤدي الوظائف المضطلعة بها على نحو أمثل وأكفأ! فترسم قنواتها النوعية والآلية الفاعلة، والتي تضمن نتائج حتمية وسريعة بكيفية تجمع بين التنظير للكتابة وتنفيذها وتوزيعها رسميا، فتقرر نقل التاريخ المزمع إنتاجه إلى المدارس لتعليمه، بعد حذف المقررات التي تراها مسيئة وقديمة، فهي غير تاريخية وكاريكاتورية! ويُعترض على كل مكوناتها؛ « تقبل وزارة

<sup>34</sup> - نحو نقد العقل الإسلامي، ص 45 .

<sup>35</sup> - ورد التعبير هكذا والاقْتباس حري.

<sup>36</sup> - من أجل تاريخ فرنسي جزائري، ص 12 .

<sup>37</sup> - المرجع السابق، ص 11 .

<sup>38</sup> - نحو نقد العقل الإسلامي، ص 46 .

<sup>39</sup> - من أجل تاريخ مشترك ، ص 12 .

التربية الوطنية استعمال كتب مدرسية ألفت في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي تغلب عليها النظرة البطولية على حساب الوقائع وتتغافل بعض الفاعلين والفترات ضاربة عرض الحائط إمكانية إدراك الوضعيات التاريخية، على الرغم من الإصلاح الذي تم في السنوات الأخيرة ظلت في الغالب كاريكاتورية وبعيدة تماما عن التاريخ في الصورة التي عاشها بها الفاعلون»<sup>40</sup> ، وكأنه يجب تغيير المضامين التاريخية مع كل طبعة كتاب مدرسي جزائري حسب المستجدات في رؤية المستعمر، وأما العامل الأصل أو المنتج التي تتوجه إليه قبل التعليم فإنه المؤرخ، حيث تضبط وظائفه بعد تحديدها وفق مواصفات التاريخ المطلوب، فتمنع المؤرخ من بعض الوظائف ولو كان تلقائياً، كإصدار الأحكام والكشف عن الأبعاد، وتقرر فصل الحكم والموقف الأخلاقي عن الحدث التاريخي لدى المؤرخ وتوجهه إلى وظائف تكيف مع متطلبات الكتابة الجديدة؛ « هل من اللازم التأكيد على أن المؤرخ ليس قاضياً يحدد ماهو إيجابي وماهو سلبى. كلتا الفئتين غريبتان عن مقارنته. يندد المؤرخ الذي يحترم نفسه كذلك بوجود تدريس " البعد السلبى للوجود الفرنسى ما وراء البحر " و ليس على الأستاذ ولا على الباحث أن يخضع للأوامر المعيارية مهما كان مصدرها»<sup>41</sup> هذه التعليمات الاستعمارية المعلنة تعيد صياغة وظيفة المؤرخ، وتتحكم في التاريخ بمنطق أحادي عمودي لا يقبل النقاش، يمنع كل ما يعرّف أو يُوصّف ! إنه إجراء تكميى على مستوى المعيارية والتفكير والتأريخ والتعليم ...

إن وحدة المضمون والمنهجية والشكل في الطرح بين المثاليين المتقدمين هو الذي فرض إحضار صيغهم التي يغيب فيها الاشتراك، وإن كان في لهجتهما تفاوت، فنجد لدى "أركون" صياغة للبنود بعينها؛ ولكن بلهجة تتجه نحو الإقناع أكثر ، ويركز هو الآخر على برنامج عمل بجملة من المحاور؛ أولها نوع من الدراسة يقول في عنوانه أنه يتناول جانبي الاستعمار ثم ما يلبث في شرحها أن يقصرها على العالم العربي والإسلامي، في توجه أحادي لتشخيص مرضه العضال وسبب تحبطه في مآزق تاريخية، إذ تحتاج مجتمعاته لأن تُستكشف سوسولوجيا وأنتربولوجيا وتاريخيا ودينيا، بينما الطرف المستعمر لا تليق به مثل هذه الدراسات! وتتحول دراساته إلى ممارسات تركز التمرکز الغربي، وتفرض الشروط على المستعمرين سابقا، في نمط عمودي من الدراسات تتخذ من المجتمعات العربية عينات بحث بشرية ضمن إحدى إسقاطات الاستعمار وعلومه.

كما يركز "أركون" على ضرورة تعليم التاريخ المزمع كتابته، متخذاً من التجربة الفرنسية-الألمانية نموذجاً، على الرغم من الفرق الذي لا يسمح بالمقارنة ولا بالقياس، ويؤكد على ضرورة تداول التاريخ الجديد مقرراً دراسياً بديلاً عن السابق الذي شحن الأجواء بالكراهية، كما كان شأن التجربة الرائدة التي تصدق برأيه على كل مثال: «.. وقد كان كل طرف يعلم التاريخ لتلامذته بشكل مضاد وعدائي للطرف الآخر قبل تعميم الكتاب الجديد. إذا ما فعلنا ذلك فإنه ستفتح أيضاً فرص رائعة لتشكيل حقائق جديدة عن الآخر، وعن شروط إنتاج الوجود البشري. ومثل هذه التجربة الرائدة يمكن أن تنطبق على كل الجيوات والعداوات والحروب السابقة المتكررة وكل الحدود المتصلبة...»<sup>42</sup> .

<sup>40</sup> - المرجع نفسه ، ص 12 .

<sup>41</sup> - من أجل تاريخ فرنسي جزائري، ص 12 .

<sup>42</sup> - نحو نقد العقل الإسلامى، ص 46 .

وبهذه الشروط يتم إعداد الظروف المنهجية للكتابة، ولعله من المفارقات أن "أركون" الذي يصف مواقف الفداء بالحكايات والنوادر، والأبطال بالخارجين عن التاريخ، يميز لنفسه إطلاق الخيال لتمثّل وضعيات لا تاريخية، لطرفي خلاف تاريخي حول حق أزي، فيطلب منهما في تنظيره الالتقاء وتبادل الرؤى بل والمناجاة! فيقول: « وعندئذ يمكن لكلا الطرفين المتخاصمين أن يتبادلا وجهات النظر الخلافية المتقاطعة حول شتى الموضوعات، وأن يتبادلا التساؤلات والمناجاة الذاتية والرؤى المشتركة أو المختلفة عن الماضي والحاضر والمستقبل »<sup>43</sup>!

يتحتم على مشروع "أركون" و تنظيراته هذه أن توضع على محك الواقع والتاريخ لتختبر إن كانت تصلح أن تكون تاريخاً حقيقياً؟ أم هي يوطوبيا؟ أم هي نهاية التاريخ؟ يتبادل فيها الظالم والمظلوم وجهات النظر ويحضر التناسج! لم ترد لدى "أفلاطون" هذه المثالية، ولا الذين تخيلوا مدنا فاضلة قد بلغوا هذا المبلغ!

### دواعي إعادة كتابة التاريخ

لا بد من السؤال عن السبب الذي يدعو "أركون" أو غيره لأن يغير التاريخ، فمبرراتهم لا يتناسب إطلاقاً مع المطلوب؛ فتغيير الأجواء المشحونة يتطلب إجراء من جنسها ودرجتها من دون الرجوع إلى الجذر لتغييره؛ فحضور ما ليس بضرورة، وغياب الضرورة العلمية والإنسانية يعيدنا إلى السؤال عن سبب إعادة كتابة التاريخ؟ إن اللاتناسب بين الدواعي المعروضة وبين جذرية الفعل المنهجي الأول الذي سيتحكم بالتاريخ وبالفكر وبكل ما يلحقهما على مستويات أوسع يعلن عن أهداف أكبر، ويذكرنا بمحاولات سابقة في تاريخ الفكر والفلسفة الحديثة تقدم بها كبار الأعلام لتوجيه الرؤى الفكرية والدينية والسياسية ومنهم "فرويد" الذي يعد قاعدة ارتكاز منهجية لـ"أركون" إذ يعدّه مؤسساً للحدثة الفكرية، وأحد كبار فلاسفة الشك ومفككي الخطاب النبوي<sup>44</sup>. وله ريادة في

إعادة هيكلية الماضي واصطناع التراث<sup>45</sup>، ففي كتابه "موسى والتوحيد" قدم تغييراً جذرياً لتاريخ الديانة اليهودية بتقريره أن مؤسس الديانة اليهودية لم يكن يهودياً بل مصرياً موحداً، وقد كشف "إدوارد سعيد" في دراسته التحليلية النقدية لكتابه عن المعاني والأفعال الناتجة عن تغيير هوية مؤسس الديانة -حسب معتقداتها- ومنها تغيير الماضي وإعادة صياغته، وتأثير ذلك الفعل في إنتاج رؤى جديدة للهويات تكون منفتحة أو في ترسيخها، أو بإعادة صياغة هويات وإنتاجها<sup>46</sup>. لا شك أن التغيير على مستوى الجذر التاريخي لأمة ما يحدث تغييراً على

مستوى كل مكوناتها، بل وعلى غيرها من الأمم، كما أن النفعية تختبئ كعامل محرك في كتابة تاريخ المراحل المؤسّسة، وكذلك للمرحلة الاستعمارية تأثر وتأثير في موازين القوى ومستقبل كل من المستعمر والمستعمّر،

<sup>43</sup> - الموضع نفسه .

<sup>44</sup> - نفسه، ص 355 .

<sup>45</sup> - فرويد و غير الأوربيين، ط1 باللغة العربية 2004، وبالتعاون مع متحف فرويد 2003، ص71، 70 .

<sup>46</sup> - المرجع نفسه، ص 62، 63، 70... .

وتمحضت عن بداية تاريخية جديدة لكليهما، لا غرابة أن تدفع المستعمر ذي الحمولة المعنوية الآثمة ليتدارك تبيض تاريخه، وعندها يتحول التاريخ إلى وسيلة تستخدم لإعادة بناء صورة دولة استعمارية أو تحسينها، ولتبرر سياستها السابقة من أجل مرحلة لاحقة...

في الواقع لا تعيننا الأمثلة بأعيانها بقدر ما يعيننا الفعل على المستوى العلمي والإنساني وهو إعادة التاريخ، ولم يكن الأمر بدعا لدى "أركون" في مطلبه السابق؛ بل كان وحدة مصغرة لإعداد مشروع وتنفيذه، وعيناته موجودة ونشطة، وهذه المنهجية كان يتبع فيها أعلاما دأبوا عليها قبله.. وقد سبق عرض ما قرره "أركون" من أن التاريخ يكتبه الظافر وهي قاعدة له ولا يستثنى منها، إذ يمكن عدُّ آلياته بوصفها منتخبة لأنها تحقق الظفر في مرحلة ما بعد الإستعمار، ولهذا يجري التمسك بها والاجتهاد في تفعيلها لتحقيق الظفر الذي تحدث عنه. ولا شك أن الحكم على تاريخ أمة بأكملها في المرحلة المؤسسة منه بالفساد قاعدة مهمة لممارسات مماثلة على الأمة وتاريخها كله. كما أن تاريخاً موثقاً يشهد على أن مستعمراً قد دمر جزءاً مهماً من البشرية في الوقت الذي كان يعلن فيه للعالم تبني قيم الحرية والإخاء والمساواة سيعيق حركته نحو أهدافه، وسيستنجد بمشروع مماثل، فيصبح التاريخ وسيلة مستعادة ليسترجع شيئاً من المصدقية ويرمم السمعة، ومن آلياته الإيجابية والفاعلة، المعنوية منها والمادية، والمقصود بالمعنوية تجريم الذاكرة الأصل والعمد إلى محوها باستبدالها بعد نسبتها إلى اللوبيات، ومنها كذلك الحديث عن فتح الآفاق باعتبارها أغراضاً إنسانية نبيلة تلغي أغراضاً أحق وأنبأ كحق التذكر وحق من قضى منهم في الذكر والتعريف، وتقويم تضحياتهم على نحو صحيح دينياً وإنسانياً ويميزان قيم سليم، غير أن الموازين والتقويمات صارت تسير في اتجاه واحد لتحقيق الظفر والمصلحة لجانب من الخصمين على حساب كل معنويات وماديات الجانب الآخر...

تأسست المقاربة التي يقدمها "أركون" ومن يوافقه الاتجاه على تحويل القيم، وتحضير خطاب يغطيها. وهذا العمل يقوم بإبعاد قيم فطرية ليحل محلها أخرى؛ وأسلوبه هو تحويل التاريخ إلى آلية للاشتغال على محطات تاريخية معتمدة، لتقديمها في ممرات السياق الفكري ومن قبل أكاديميين؛ مما يمنحها شرعية علمية بواسطة أطر لائقة ولا معة. إن المعالجة المطروحة لديهم في الواقع تتسلل إلى الأصل القيمي، وتكشف عن عمليات تحويلية عميقة تجرى على فحوى الموضوع وهو معناه أو مفهومه، سواء بالسكوت عنه أو بالتنظير حوله تحت عنوان إنشاء قيم جديدة بعد أن يصنف الموجود منها إلى قيم ميتة؛ مع أن القيمة سميت إنسانية لأنها فطرية وحقيقية ولا تموت، وفي هذه الفقرة يفصح "أركون" عن جانب من نشاطه المنصب على القيمة، والملاحظ أنه يتعامل مع موضوع القيم باستهال خيالي، كما لو كانت مادة استهلاكية يجري تصنيعها أو تعديلها فكرياً على غرار التعديل الجيني أو يعاد تركيبها ضمن طواحين فكرية تنسب إلى ميدان العلوم الإنسانية، ثم يخرجها في الصيغة المطلوبة ووفق المواصفات الخاصة، ويتسمية جديدة، وأهم ما يميزها أنها ذات وظائف تستجيب للمقترحات النقيضة؛ وتسهم فيها، « On peut parler d'une subversion du sujet humain pour le libérer des usages obsolètes de valeurs « mortes », désormais nuisibles, et le préparer au travail de fondation de valeurs en voie d'émergence dans le sang et les violences structurelles. J'ai commencé à ouvrir ces voies de la

recherche, de la transmission des savoirs et de l'action des années cruciales de guerre algérienne de libération (1954-1962). Ni la France, ni l'Algérie n'ont vraiment exploité des suites douloureuses de cette guerre dans les perspectives humanistes que j'évoque ici. Pourtant l'expérience historique qui lie ces deux pays à une portée paradigmatique pour les solutions de dépassement des misérables conflits dans lesquels pataugent tant de peuples, d'états et de sociétés civiles»<sup>47</sup>

يقرر "أركون" في المدارس للبلدين. ولقد كان به حنق أثارته مناهج التعليم في فضاء حوض البحر المتوسط والتي يسميها أنظمة الجهل المتبادل بين الطرفين؛ «فالبرامج الدراسية الغربية لا تقدم صورة موضوعية عن تراث العرب والإسلام والمسلمين ككل. والبرامج الدينية السائدة في الجهة العربية والإسلامية مليئة بالنزعة والجهل بالحضارة الأوروبية ومنجزاتها التحريرية أو التنويرية... إن هذا الجهل المؤسساتي أي المدعوم من قبل مؤسسات الدولة والمرسخ من قبلها معلن على رؤوس الأَشهاد في الجهة الإسلامية عربية كانت أم غير عربية. إنه معلن بنوع من الغطرسة التي لا تحتمل في بعض الأحيان. لنفكر ولو للحظة بالبرامج الدينية الملتزمة جدا في الدول البترولية لمحافظة مثلا. ولكن الدول الأوروبية والغربية مضطرة لغض الطرف عنها لكي تخفف من الآثار الكارثية لتلك الإستراتيجية الجيوبوليتيكة القائمة على الهيمنة

أساسا وعلى سياسة العصا والقوة التي دشنها بسمارك و نابوليون...»<sup>48</sup> ، وفي النص اعتراض حاد على رئيس فرنسا والاتحاد الأوروبي لأنهم لا يتخذون المواقف اللازمة!! خاصة فيما يتعلق بنظام التعليم الذي يصفه بالمتخلف والخطأ، يصفه بالثمار المرة لسياسة التريث التي لجأت إليها أنظمة ما بعد الاستقلال بحجة استرداد الهوية الوطنية كما يملي تحليله...<sup>49</sup> . وأما الشاهد المتعلق بالخلفية الفكرية فهو استنهاضه مسؤولية ووصاية رؤساء العالم الغربي لإصلاح منظومات تعليمية وتصويب مسارات الفكر لدى العرب والمسلمين وفق المعايير الخاصة به. إن طلبا كهذا يصدر من إيمان عميق بالتمركز الأوروبي قد لا ينطوي عليه الأوروبيون أنفسهم، يشير إلى المنجزات التحريرية في أوروبا بلغة إيجابية، ولو كانت رسالتها استعمارية ، ويلزمها بمتابعة مناهج التعليم في العالم العربي، بل ويستعديها على مؤسساته. ومقترحه في إعادة التاريخ مع اجتهاده في جعله محايدا وأكاديميا، يؤكد في الواقع خلفية التمركز الغربي من غير غربي، وفي نظرة دونية لما هو عربي .

### إعادة كتابة التاريخ؛ ضرورة أم حاجة أم وجوه استعمارية مستحدثة ؟

يتطلب النظر في فعل إعادة كتابة تاريخ الفترة الاستعمارية التفكير في شروط أهمها وجود مشاركة فعلية وحقيقية لكلا طرفيه، وفي معناه وفي مآلاته، خاصة وأن معنى الفعل يفيد التغيرات بين التاريخين الحاصل والمطلوب. وأهم دعوى تردت من قبلهم تتمثل في نسبة التاريخ القائم إلى الأنظمة السياسية في تلك الدول باعتباره ورقة لديها، والاعتراض والمطلب كلاهما مادي اتخذ كمدخل إلى المطالبة بجيازة حق التأريخ تحت عنوان الاشتراك... ولكن هل يمكن تحقيق كتابة تاريخ موضوعية وعادلة وبالاشتراك بين خصمين ؟

<sup>47</sup> - ABC de l'Islam, p 338 .

<sup>48</sup> - نحو نقد العقل الإسلامي، ص 163 .

<sup>49</sup> - المرجع نفسه، ص 356 .

لا تجيب هذه الدراسة على السؤال بقدر ما تتساءل عن التصور الطبيعي لكتابة مشتركة ومقارنتها بالكتابة المقترحة، إن كان يمكن إقامة هذا المشروع في الواقع أم أن الاشتراك لا يتجاوز العنوان! دلت شواهد كثيرة في الخطاب المعروف على أنه ينص على كتابة أحادية الفعل والمصلحة، ذلك أن هذا الإشكال يفرض أسئلة بسبب مثاليته ولا واقعيتها، منها الوجودية والفكرية والسياسية وحتى الكلامية، فهي أسئلة أزلية، يتعلق بعضها باليوتوبيا كنموذج للتخدير والتمويه يستعمله، على الرغم من أنه رفضه في الخطاب الديني ويصفه دائما باللاتاريخي! و هل يمكن لعقل مهما تكن طبيعة تفكيره ومستواه القبول بتصوير هذا الإمكان ولو بالافتراض؟ وهل يمكن وضع صيغة تاريخية بشروطها الموضوعية وترضي طرفين من هذا النوع بينهما نزاع على وطن وحق سلب، ثم جرّ حقوقا أخرى بشرية ومادية ومعنوية؟ كيف يمكن تحقيق كتابة تاريخ بالتراضي بين متنازعين؟! ودون تنازل أو هضم، والتاريخ تسجيل حقائق وشهادات؟ إذا غيَّينا جدلا كل الخلفية العقلية والسنية في تنازع الإيرادات التي تمنع إجراء هذا الأمر وفق الحضور الفاعل لطرفيه وكل الشروط والاعتبارات والتكافؤ الأخلاقي والسلطوي للطرفين، فكيف بإمكان تطبيقه واقعا؟!

لا يمكن مناقشة هذا المقترح إلا في حيز الافتراض، لأن الاشتراك في التاريخ يكون تسوية متأخرة لقضية جوهرية متقدمة حول حق سلب وترتبت على استرجاعه آثار وحقوق. كما تشتمل على خط من المبادئ كانت عهدا قضى في سبيله الرعيل الأول، وعلى الخلف رعايته.. والتسوية تهدد خط المبادئ بموقف جديد، قد يعني حكما بتخطئته أو تأييمه بعد أن كان عهدا أخلاقيا بالتذكر والوفاء للمبدأ ورجاله!

يجق للتساؤلات الافتراضية التي ترتبت على مقترح كتابة تاريخ مشترك يجمع الجاني والضحية ويطلب منه إرضاء كليهما، أن تستفسر عن الشهداء وقيمتهم وميراثهم المعنوي.. كيف سيكون مصير معانهم مع طرف لا يؤمن بالبطولة ولا بالتضحية ويسميها حكايات ونوادير وكاريكاتورية، ويعدها حالة تتطلب من المؤرخ تشريح الوعي الجماعي للكشف عن مبهم سلوكي ونفسي، ويتساءل عنه كيف تستأهل المعاني والعبر أن يناضل الإنسان من أجلها بل وأن يموت في سبيلها<sup>50</sup>؟! وعليه حين تطبيق الكتابة التوافقية في الواقع، كيف سيُعرّف الشهداء والرموز مثل؛ "ابن المهدي" و"ديدوش مراد" الذي أوصى « إن كتبت لنا الشهادة فحافظوا على ذكرنا»، وكيف ستوثق تراجمهم؟ وهل سُدْرَس؟ وعلى أي نحو؟ وبأي تقويم؟ وكيف ستؤرّخ مواقفهم، لأنه لا بد أن تؤول لأحد وصفين إما إلى كونها بطولية أو إلى نقيضتها! وربما ستفضي إلى وصف مُشكّل بينهما!! لأنه لا مخرج إلى بتأويل المواقف وعندها سيؤول الأمر إلى تأويل التاريخ لأنه تاريخ محكوم برؤية وينبع من موقف لا من حقيقة وشهادة، ويؤول تبعا لذلك إلى إنتاج تاريخ أو إعادة إنتاجه ..

لقد ارتبط التاريخ لدى الأمم والإنسان بالذات، فكان أعمق ما فيها، هو من يمنحها كينونتها ووجودها، ويتعلق أيضا بإثبات الحقوق، وهو الهوية والمعنى، وهو بصمة لا يمكن الاشتراك فيها! ومن ثم فإن كل محاولة لتغييره

<sup>50</sup> - أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ص 281، و من أجل تاريخ فرنسي جزائري، ص 12.

تهدد كل المعاني والمفاهيم التي أدت إلى الاستقلال؛ ذلك أن جيل الثورات التحريرية، والأجيال التي مهدت لها كانت تعرف القيمة جيدا رغم افتقارها للعلم المؤسساتي وأميتها، فاستطاعوا التحرر، على الرغم من وفرة ونوعية العروض الاستعمارية، وفضلوا القيمة الدينية والإنسانية والأخلاقية والمحافظة على الشخصية بكل قيمها ومقوماتها... بينما يلاحظ أن مقترحات فكرية ومنهجية تاريخية كالتاريخ رأينا تقوم بتغييب كامل لقيمتها، ثم تحتهد في تحسين صورة الاستعمار وإفراغه من المعاني السلبية، فينصب اشتغالهم على قلب القيم والفترة وتحويل الأحكام إلى نقيضها؛ من ذلك التعامل مع الشذوذات في المفاهيم وتقديمها على أنها طبيعية، ومنها أيضا إضفاء الصبغة الثقافية والحضارية على المشروع بكيفية تعتم على الذات الوطنية وحققها في مبادئها وتاريخها وذاكرتها و تستولي على حق كتابته، وتفتك نصيبا من تاريخها باستيلاء جديد على الحقوق المعنوية والمادية، وهو شبيه باستعمار ما بعد الاستعمار يقدم في شكل تحليل فكري ومشروع أكاديمي ومن منظور إبستيمي...

يكشف التحليل التلقائي لهذا الخطاب أنه لم يستطع التخلص من العمودية والأحادية والتعليمات وتصنيف المجتمعات الغربية والعربية بشكل فج، وأن مكوناته تنبئ عن كونه تاريخا سيكتب لفائدة جهة هي المستعيلة، لأن ما سطرته من تاريخ استثنائي لا يتناسب ومستقبل سياستها، فكشفت عن الناتج قبل البدء؛ إذ لم تكن المقاربات لصالح تحليل متوازن، فالأنظمة الغربية قُدمت على أنها نموذجية و لها دور الوصاية، أما مثيلاتها العربية فتُقدم على أنها تجمع الشرعية من خلال تاريخ الثورة وسلطة الدين. أما النموذج الأولي الذي سعى به ملتقى ليون فإنه يكشف غيابا فعليا للطرف الأهم؛ ذلك أن الحضور والفاعلين كان فرنسيا بنسبة 88% بشخصيات وأسماء أعجمية والقلة الباقية لأسماء عربية<sup>51</sup>، وهو ما يعكس غيابا شبه كلي للخصم التاريخي المتضرر يعكس تغييبه الحقيقي والتاريخي عند إنجاز تاريخه.. وتتجلى مظاهر المرجعية الفكرية ممثلة في التمركز الأوربي والاستعلاء الفكري والتاريخي بوضوح، ولعل أخطرها على الإطلاق هو احتكار العلمية ومعاييرها واستخدامها في مثل هذه المجالات، وقصرها على أنفسهم ويجري سحبه حتى من الأكاديميين العرب والمسلمين. والحمل عليهم بتهمة الجهل والدينية واللاعلمية إن سولت لهم أنفسهم التفكير في ذلك.

ومن ثم فإن الإشكالية الفعلية تتقاطع مع سابقتها - كتابات تاريخ مشترك - وتتعلق في الواقع بالمعايير الأكاديمية المحتجزة أو المحتكرة، واعترافها أو عدم اعترافها بالقيم الإنسانية الفطرية وبتسمياتها وتصنيفاتها المعلومة بالضرورة لدى البشر جميعا، لأن تلك المعايير باتت مملوكة لدى سلطات وقوى يعينها توجيهها وتتصرف في مسمياتها... وربما استمدت الصلاحية والشرعية من صفتها الأكاديمية العلمية، فتطلقها على من تشاء وما تشاء من ذوات بشرية ومفاهيم ومعان وتسحبها ممن تشاء بوصفها هي المؤسسات المنتجة للمعايير... وعندها يتحول التاريخ إلى مادة مستعملة غير قيمة، كما تتحول "حراسة القيم" إلى عمل لا يليق بالمتقنين والأكاديميين لأنه "حراسة" ولا يصلح إلا للعامّة من الأوثودوكسيين في إطلاق "أركون"، بنوع من الإيجاء للمثقف بأن يربأ بنفسه عن أن يحرس

<sup>51</sup> - انظر المقدمة والمشاركين في مقدمة الكتاب، من أجل تاريخ فرنسي جزائري.

قيما أو يناقشها. وهذا الفعل من التأسيس والتعارف على معايير وأدبيات جديدة أكاديمية، تعيد تصنيف وتوزيع الاختصاصات والاعتمادات والممارسات الفكرية بين الفئات المشتغلة بالفكر في المجتمعات، وتنعكس آثارها خاصة على البلاد العربية والإسلامية، فما كان من شأنه أن يسند للنخبة مثل العناية بالقيم وفكرها، يقوم به من هو دونهم مع سلبه وصف العلمية، وفي المقابل يندب الأكاديمي في العرف الجديد إلى ما حُدد بأنه علمي فيقدم مساهمات محايدة جدا ومتصالحة، وتبتعد عن وظائفها التلقائية التي تتحول في التقويم الحديث إلى فعل معيب! فينتج نوع من التغيير لجرى القيم ومساراتها وقلب لمعانيها.

ولعل توفر الظروف الموضوعية هي الشرط الوحيد لفعل كتابة التاريخ أو نقده، ولا يصح رفضهما، إذ لا يخلو العمل البشري من الخطأ حتى الثورات التحريرية، ولكن ثمة مساحة تتمثل في المبادئ هي أشبه بمنارات السبيل، لا بد من وجودها والحفاظ عليها، كمبدأ الحرية ورفض الاحتلال، والكشف عن مفهومه العدمي من غير تمويهه ولا إخفاءه.. لكن لا شيء من تلك الشروط كان حاضرا في المقاربة؛ حيث عوملت القيم بقوانين السوق وحدها؛ فما كان مريحا استخدمت الخطابات لإنتاجه، وإجراء كل الاستبدال اللاعلمي على معنى التاريخ والعلم والقيم، ليمارس الاستعمار بشرعية المنهج التاريخي، ويعلن الحرب على التاريخ وينتقم منه، بآليات من القوة والسلطة ولكنها منهجية، يمتلك بها الحق لكتابة تاريخ للمستعمر جميل ونظيف ومفيد ..

في ختام هذه الدراسة حول مقاربة "أركون" يتضح وجوب تعرض المقترح الذي أدلى به للفحص والاختبار، كشأن كل مساهمة فكرية، وبجته إن كان يتسم بالمعقولة أم أنه تهاد في الخيال واللاواقعية في سعيه إلى إنهاء كل صراع في العالم، من أجل صلح عام بين البشرية! هل يتصف طرحه بالجدية؟ أم هو استدعاء يوطبها كونية مثالية فوق العادة، وجديرة بوصف اللاتاريخية، من قبل الشهير بوصف مظاهر القيم المتعارف عليها بالمثالية والأسطورية، ثم يقرر مشروع سلم كوني عام! ولكن في جانبه الشكلي فقط أما مقارنته في عمقها فإنها اشتملت على خطاب يفرض سلطة بدأ بممارستها هي امتلاك حق التأريخ، وقد تمت معالجتها على مستويات كثيرة تم عرضها، غير أن وضع مسوغاتها تجاوز الموضوعية والمعقولة، كما أن الأساليب الموهبة كسمة الاشتراك في مطلب الكتابة التاريخية لم تطرح لذاتها لأنها مفقودة عمليا، بل خدمت الخطاب المقصود من خلال فرض مغالطات على مستوى المفاهيم والوظائف، فتم تفعيل آليات خطيرة وصامتة تنفذ وظائفها على جملة مستويات مفهومية وأخلاقية ومنهجية بالتحويل والحذف والإلغاء والسكوت، وتستبدل المعايير التي تعارف عليها المؤرخون والبشر بأخرى تأتي ضمن مدّ منهجي وفكري، وهي تحتاج إلى التأمل والفحص لما تنتجه من معرفة شاذة وغير مألوفة..

## مراجع البحث:

أركون، محمد:

- \_\_ الإسلام والأخلاق والسياسة، ترجمة هاشم صالح، منشورات اليونسكو، باريس ط1، 1986 وبالتعاون مع مركز الإنماء القومي، بيروت\_باريس، ط1، 1990.
- \_\_ تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي والمركز الثقافي العربي، ط3، 1998.
- \_\_ الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي والمركز الثقافي العربي، ط2، 1996.
- \_\_ قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط3، 2004.
- \_\_ نحو نقد العقل الإسلامي، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2009 .
- \_\_ الهوامل والشوامل، حول الإسلام المعاصر، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2010 .
- \_\_ وحدة المغرب العربي، مشاركة بعنوان " الفضاء الاجتماعي والتاريخي للمغرب العربي"، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 1987.
- \_ ABC de l' Islam, pour sortir des clôtures dogmatiques, éd Grancher, 2007 .
- \_ Humanisme et Islam, combats & propositions, éd barzakh, Alger, 2007.
- \_ La pensée arabe, Dépôt légal, 8<sup>e</sup> éd, 2010.
- \_\_ سعيد، إدوارد، فرويد و غير الأوربيين، ط1 باللغة العربية 2004، وبالتعاون مع متحف فرويد 2003.
- \_\_ فوكو، ميشال، هم الحقيقة، ترجمة مصطفى المسناوي ومصطفى كمال ومحمد بو العيش، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2006.
- \_\_ من أجل تاريخ فرنسي جزائري، إنهاء الضغوط الرسمية ولوبيهاات الذاكرة، أعمال الملتقى المنعقد في المدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية بليون في 20 و 21 و 22، جوان 2006؛ وعنوان الملتقى: "من أجل تاريخ نقدي ومواطني وضعية التاريخ الفرنسي الجزائري"، بإشراف فريدريك آبيكاسيس، وجلبار ميني، ترجمة: خولة طالب الإبراهيمي، إيناس للنشر، الجزائر 2011.